ثقافة التواصل بين الذات والآخر

من منظور إسلامي

إعداد

د . عثمان بن صالح العامر

أستاذ الثقافة الإسلامية المشارك

مدير عام التربية والتعليم بمنطقة حائل

في المملكة العربية السعودية

١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥م

مقدمة :

مع كل انعطافة تاريخية يمر بها العالم العربي والإسلامي تطرح مقولة العلاقة بالآخر الحضاري ، وإلى أي مدى تعد ضرورة لمواكبة العصر والركب الحضاري ؟ وهل ينبغي أن نغلق على أنفسنا الأبواب والنوافذ حتى لا يتمكن هذا الآخر الحضاري من اختراقنا والتسرب إلينا في منظومتنا القيمية ، أم تنفتح الأنا الحضارية على الآخر في إطار التواصل الإنساني اللازم لاستمرار الحياة ؟

جدلية قائمة ودائمة بين ما يحدث من أحداث وتحولات في واقعنا الداخلي كأمة وبين الفعل التأثيري للآخر سياسياً كان أواقتصادياً أو ثقافياً وفكرياً .

وما بين الرفض المطلق أو القبول المطلق للغرب (الآخر) فضاء كبير على ساحة الفكر و الثقافة تعددت مناهجه وتنوعت رؤاه وتباينت نتاجاته كمشروعات فكرية أسس لها مفكرون ، وتكونت لها مدارس جمعت بين أتباعها والمدافعين عنها والمطبقين لمضامينها ومعاييرها ، وتفاوتت هذه الرؤى بين رؤى تتسيد وتهيمن بما يتاح لها من إمكانات وقوى مساندة ، ورؤى أخرى تفند وتنقد وتعارض في محاولة لبناء أنماط من الوعي واتجاهات مضادة .

ومع العديد من الإخفاقات والإنكسارات العربية والإسلامية التي تعددت مظاهرها في الوقت الراهن ، وتكرس مفهوم صدام الحضارات على ساحة الفكر العالمي ، وسقوط المعسكر الاشتراكي الشيوعي من حلبة الصراع ، والخلل العالمي الناتج عن أحادية القطب، وانهيار التطبيقات الحقيقية لمواثيق وفعاليات المنظمات العالمية ، كل ذلك جعل العالم الإسلامي يشكل قطب الرحى في حركة العالم المعاصر ، فمعظم الهزات والتقلبات التي عرفها العالم في العقود الأخيرة كان محلها وساحة انطلاقها أو تجليها عالمنا الإسلامي ، وإن تم تخطيط معظمها خارج مجال نفوذه .

وأدى ذلك إلى طرح القضية (قضية الأنا والآخر) بقوة في الوقت الراهن في إطار دعوات مؤسسية " سياسياً وفكرياً وثقافياً " تسعى إلى تشخيص الواقع وتفسير المشكلات المعاصرة سواء اعتبرت وليدة المؤامرات والمخططات الخارجية (الغربية) التي تسعى باستمرار إلى إجهاض حلم التقدم واختراق جدر الأمن الثقافي والهوية الإسلامية وتدمير كل الإمكانيات والقدرات المتوافرة في هذا المجال ، أم اعتبرت من صنيع عوامل داخلية تعيش وتنمو في جسم الأمة (الذات) فعلت فعلها في إجهاض وإفشال تطلعات الأمة ومشروعاتها .

إن تجاهل البعدين أو أحدهما لا يوصلنا إلى فهم حقيقي ووعي دقيق للمسيرة أو التجارب التي مرت بها الأمة وإنما سيبعدنا عن أدوات التحليل السليم ويجعلنا أسرى لتفسيرات تزيدنا وهماً وبعداً عن الحقيقة .

فالداء الحقيقي والأزمة الكبرى التي تواجه واقعنا العربي والإسلامي لا يرجع إلى مؤامرات الآخر — مع ما لهذه المؤامرات من دور خطير وخبيث — ولا يرجع فقط إلى (الذات) وهامشيتها بعيدة عن متطلبات المشاركة والمساهمة الإيجابية في أحداث العالم ، فمن يكتفي بلوم الآخر لا يدرك فنيات الصراع والتحاور كآلية لإدارته .

ومن هنا تأتي أهمية الوعي الفكري بالذات وبالآخر ومنهجية التعامل معهما في عملية التشخيص الحي لكيفية تعامل العالم الإسلامي مع الآخر وكيفية تفاعله مع نفسه وكيفية التعاطي والتبادل وكيفية النضال والحوار مع الآخر .

إن البحث خلف المعاني الكامنة في هذه الكيفيات تتعدد مجالاته ومساراته بتعدد أشكال الواقع وأدبيات دراسته .

وتحقيق ذلك مشروط بالانطلاق من أرضية للفهم ومنطق للتناول للعلاقة بين الشرق والغرب (الأنا والآخر) التي اتخذت أبعاداً مختلفة على مدى حقب تاريخية ممتدة وتجسدت في تخصصات فكرية سميت بعلمي (الاستشراق والاستغراب) ، وهذا ما يمثل إشكالية الدراسة الحالية .

إشكالية الدراسة :

عمد الباحث إلى وسم موضوع الدراسة بالإشكالية لأنه يتميز بالجدلية بين أطرافه وليس ثمة إجماع على فهم معين لكنه العلاقة بين الذات والآخر (الشرق والغرب) كما تدل رؤى الفكر ومشاهدات الواقع المعاصر ، فضلاً عن أن محك المغايرة لتلك يتمثل في نقدها على ضوء المبادئ الإسلامية ومضامينها الثقافية ، وعليه تتضح إشكالية الدراسة في التساؤلات التالية :

س١- ما مفهوم الذات والآخر ؟ وما أهمية التواصل بينهما ؟

س٢- ما أهم أبعاد الرؤية التي تحكم علاقة الذات بالآخر في الفكر الإسلامي المعاصر ؟

س٣- ما أبرز مظاهر الواقع الفكري والثقافي المعاصر التي تميز علاقة الذات بالآخر ؟

هذه هي الأسئلة الأساسية التي تثيرها هذه الدراسة وتحاول الإجابة عنها من موقع إسلامي ، ومن وجهة نظر تتسق مع هذا الموقع والمنظور .

حدود البحث :

تتعدد زوايا البحث في موضوع العلاقة بين الشرق والغرب لتشمل الفكر والأدب والثقافة والفن والسياسة والاقتصاد ومن ثم تتمثل حدود تحديد دائرة الدراسة الحالية التي تتمركز حول دراسة الاستشراق والاستغراب كنهجين يعكسان نظرة في أصول التعامل وفقه التناول للعلاقة بين الطرفين ، ويأتي ذلك من خلال أبرز المؤلفات التي تناولت الموضوع في عصرنا الراهن ونالت من الانتشار ما جعلها محل الاهتمام وولدت جدلاً على الساحة الفكرية والثقافية في رؤية كل من الأنا والآخر كخلفية نظرية تتأسس عليها تلك الإفرازات التي تشخص أبرز ملامح الواقع الثقافي للذات وصورتها في وعي الآخر واستيضاح الرؤى التي تمكن الذات من التعامل المبدع مع الآخر في ضوء متغيرات العصر الراهن .

أهمية الدراسة :

تتمثل أبعاد أهمية الدراسة الحالية فيما يلي :

- ما هو مطروح عالمياً في اللحظة الآنية عن ضرورة الحوار بين الشرق والغرب لتقليل الهوة التي تفصل بين الفضاء الفكري لكل منهما في تناول قضايا واقعية تمس حياة البشر على سطح المعمورة .
- الأحداث الأخيرة التي نتج عنها تطاول وتجاوز المسلمين إلى الهجوم على الإسلام نفسه إذ تغيرت لهجة الخطاب الغربي من وصف المسلم بالتخلف والتزمت وعدم القدرة على مجاراة عصره إلى وسم الإسلام بالإرهاب والتطرف والتزمت .
- مفهوم الصراع بين الإسلام والغرب وتكريسه من قبل دوائر تصنع بؤراً للتوتر الفكري والثقافي وتغذيه باستمرار بغية استغلال الوضع الراهن في تحقيق مكاسب ، ويتم ذلك من خلال تناول مشوه لحقائق ومفاهيم إسلامية تبرر التدخل والتعديل بحكم الهيمنة المملوكة للآخر .
- المساهمة في الجدل الدائر حول بلورة فهم مشترك للعلاقة الصحيحة بين الشرق والغرب يكون أساساً للحوار وخلفية فكرية وثقافية لدى العقل الجمعي في فهم الأمور وتفسيرها وفق الأبعاد المكونة لبنية التواصل الحقيقي .
- نقد بعض الرؤى التي تذهب بأسس العلاقة بين الأنا والآخر بعيداً عن الرؤية الإسلامية التي تأصلت على مدى قرون طويلة أدارت العلاقة بنجاح شهد به الآخر الموضوعي على مر التاريخ .
- وتزداد أهمية الدراسة الحالية بالتناول الفكري لقضية بالغة الأهمية .

منهج الدراسة :

على ضوء إشكالية الدراسة والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها يتحدد منهج الدراسة الحالية في المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على وصف الظاهرة الفكرية موضع الدراسة كما هي في الواقع بغية تشخيصها من خلال تحديد أبرز الملامح المميزة للواقع الراهن في فهم العلاقة بين الأنا والآخر ، كما تستخدم الدراسة الحالية المنهج النقدي

في محاولة لتفنيد بعض الرؤى المطروحة على الساحة ، وذلك على ضوء مستخلصات المبادئ والمنطلقات الأساسية للرؤية الإسلامية .

ووفق المنهج المتبع تأتي الدراسة على النحو التالي :

أولاً : الإطار العام للدراسة .

ثانياً : الأنا والآخر = المفهوم وبنية التواصل .

ثالثاً : جدلية الأنا والآخر في الفكر العربي المعاصر رؤية نقدية .

رابعاً : أبرز ملامح الواقع الثقافي المعاصر للذات ووعيها بالآخر .

ثانياً : الذات والآخر : المفهوم وبنية التواصل .

الذات والآخر من المفاهيم التي تعبر عن الخلاف والاختلاف على مستويات متعددة تمتد من التعبير عن الأفراد فيما بينهم إلى التعبير عن الذات الحضارية لأمة ما في مقابل الأمم الأخرى مروراً بالفرق والجماعات والمدارس والأيديولوجيات والعقائد والمرجعيات .

ولم يكن طرح الأنا والآخر في الفكر الإنساني عامة دلالة على التعدد الكمي البشري بقدر ما هو تعبير عن التنوع والاختلاف في مجال الفكر والمرجعيات وما ينبثق عنهما من وعي وممارسة تشمل كافة المجالات التي تستوعبها الحياة .

ووفق هذا المنطلق تستوعب العلاقة بين الذات والآخر شكلين أساسيين هما :

(الاتصال والتواصل) ، والاتصال (communication) : مفهوم عام يتضمن أي نوع من أنواع إرسال الرسائل واستقبالها .

أما التواصل (interpersonal communication):

فهو نوع محدد من أنواع الاتصال ينطوي على الثراء في المعنى ليشمل الثنائية والتفاعلية والاستمرارية وهي دلالات مركزية في التواصل المقصود في علاقة الأنا بالآخر (١) .

والمقصود إجرائياً بالأنا في هذه الدراسة ما يمثل ذاتنا الشرقية بمفهومها العربي والإسلامي تراثاً وتاريخاً وثقافة وحضارة وإنساناً ، أما الآخر فيقصد به الغرب فلسفة ومنهجاً وتفكيراً وسياسة ومصالح .

وهذه العلاقة المتشابكة يتداخل فيها الذاتي والموضوعي والعلمي والمصلحي حياداً وانحيازاً تحقيقاً وتزييفاً وهو ما يقتضي فضاً للاشتباك بين خيوطه ، والتعرف إلى مصادره وموارده ودوافعه وحوافزه وأغراضه ومقاصده كمكونات أساسية لعمليات تشكل الوعي بذاتها وبالآخر (٢) .

ومن ثم تتبدى أغراض التأصيل لمفهوم الذات والآخر (الشرق والغرب) في هذا الجزء من الدراسة في بعدين أساسيين هما :

الأول : أن دراسة الشرق والغرب المعبرة عن الأنا والآخر ليست مجرد تقسيم جغرافي بقدر ما هو تقسيم يرصد الحضارة والوعي لكل منهما بالآخر .

لقد استهلك تقسيم الشرق والغرب جهداً كبيراً ، وكان محل اختلاف بين الباحثين على مدى حقب زمنية طويلة ، والدراسة غير معنية بذلك التقسيم الجغرافي الذي أصبح محل معرفة في العصر الراهن بقدر ما هي معنية بالنظر إليه من عدة زوايا(٣) :

- زاوية أكاديمية للبحث في كل ميدان من ميادين علم (الإنسان) إلى فقه اللغة .
- زاوية أيديولوجية تشمل أسلوب الفكر القائم على التمييز الوجودي والمعرفي بين الشرق والغرب وما ينتج عنه من مفاهيم الاستغلال والسيطرة أو امتلاك السيادة والهيمنة .
- زاوية وعي كل منهما بالآخر (الشرق والغرب والعكس) والتي أفرزت على ساحة الفكر والثقافة مشاريع الاستشراق والاستغراب إذ يمثلان الآلية الذاتية لدراسة الآخر . ومعلوم مدى أسبقية علم الاستشراق كآلية غربية على الإرهاصات المعاصرة لتكوين علم الاستغراب اللذان يهدفان إلى تشخيص حالة الوعي المتبادل بين الذات والآخر والممثلة في النهج التأصيلي للتواصل بينهما ، قد نالت من اهتمام الباحثين المعنيين ما عبرت عنه رؤى عديدة ومتنوعة أثرت تأثيراً مباشراً في صياغة الوعي الجمعي لتعامل الـــ نحن مع الآخر على صعيد المشاعر والممارسة كنتيجة طبيعية للإدراك .

الثاني : أن وعي الذات والآخر لنمط العلاقة الحاكمة بينهما هو الأساس في إفراز آليات التعامل وتشكيل بنية التواصل الحقيقية التي تمثل أبعادها فيما يلي :

١) اعتبار التواصل الإنساني عملية معلوماتية معقدة يتم التعبير من خلالها بين طرفين (الأنا والآخر) عن الأفكار والوقائع والمشاعر بأشكال مختلفة وعبر قنوات عديدة بهدف تحقيق وظائف متنوعة في ظل خصائص تميزه وعوامل تؤثر فيه كما يتضح من الجدول التالي :

بنية التواصل

مكونات التواصل	أشكال التواصل	خصائص التواصل	وظائف التواصل	عوامل تؤثر في التواصل
- الأطراف : المرسل والمستقبل	- ذاتي	- مستمر	التبادل	الكفاية
- - العناصر : الرسالة والمعلومات	- ثنائي	- شائع	إشباع الحاجات	السياق
	- فرد / جماعة صغيرة	- معقد	التأثير	التغذية الراجعة
	- لفظي	- تفاعلي	المتعة	التغذية المتقدمة
- - القناة	- مقصود	- دينامي : متغير متعامد	المساعدة	الخبرة المشتركة
- المعنى	- غير مقصود	- متزامن ومتعاقب		مفهوم الذات
		- غير قابل للعكس		
		- مؤثر		
		- كلي		
		- أخلاقي		

المصدر : محمد بلال الجيوس ، أنا وأنت ، ص ٢٤

أ - يشير الجدول السابق إلى مكونات التواصل المتمثلة في المعلوماتية المتصلة بالوقائع الحسية ، أو الأفكار المجردة أو المشاعر والأحاسيس أو التعبير عن الفكر والسياسة ، و نواة التواصل التي تتطلب وجود طرفين بالضرورة هما الأنا والآخر والرسالة والقناة والمعنى الذي يمثل في عملية التواصل الجذوة التي بدونها لا تدب الحياة في حادثة التواصل ، ذلك أنه إذا لم يدرك كل من الأنا والآخر معنى الرسالة فإن التواصل ينقطع تماماً ويختلف المعنى عن باقي المكونات في أن وجوده ضمني وليس حسياً ، إنه روح التواصل ، في حين تشكل المكونات الأخرى الجسد . ومن هنا تبرز قيمة المعنى الذي يفسر على ضوء وعي ذاتنا بالغرب وأهمية تشكله بما يسمح بتفسير الأحداث تاريخياً وآنياً وهو ما تسعى الدراسة إلى تحليله في قسمها الثالث من خلال أبعاد العلاقة بين الشرق والغرب ومفهوم كل من الاستشراق والاستغراب .

ب- أن أشكال التواصل تشمل في منظومتها التواصل بين الأشخاص ، وبين الفرد والجماعة، واللفظي ، وغير اللفظي ، والمقصود ، وغير المقصود ، كما تشمل حديث الذات أو التواصل الذاتي ، وله أهميته - شأن التواصل مع الآخر - وله مظاهره وآلياته ووظائفه وعواقبه وعوائقه وهو على صلة خاصة وقوية مع مفهوم الذات ومدى وعيها بالآخر ، ومن ثم تبرز أهمية طرح أبرز ملامح الواقع الثقافي لذاتنا في الوقت المعاصر كمقتضى من مقتضيات التواصل وشكل أساس من أشكاله ، وبعد هام في تحديد ملامح العلة والأزمة التي نعاني منها في عصرنا الحاضر إذ أن الذات هي المسؤولة عن تشكيل وعيها بنفسها وبالآخر في آن واحد وإلا ستتحول إلى متلقي تبتغي معه التواصل ببنيته الحقيقية ، وهذا ما حرصت عليه الدراسة في جزئها الرابع .

ج- تتمثل أهم خصائص التواصل في (٤) :

١) **الاستمرارية** :ويقصد بها التواصل بصورة مستمرة عبر الزمن هذا من ناحية ، وأن تكون الحادثة التواصلية مرتبطة بما قبلها وما بعدها في إطار يتسق مع منطق الإدراك ومعطيات الأحداث من ناحية أخرى .

٢) **الشيوع** : وهي خاصية مرتبطة بالمكان . والاستمرارية الزمانية والشيوع المكاني هما اللذان يمنحان التواصل هذا التغلغل في النسيج الفكري والاجتماعي للحياة .

٣) **التعقيد** : وذلك بحكم تضمنه العديد من العناصر المتداخلة والبدائل والنتائج وأطراف ومكونات وأشكال وأبعاد وفنيات التواصل .

٤) **التفاعل** : ويعد التفاعل في عملية التواصل وجهاً من وجوه التعقيد فالاتصال التفاعلي حين تبني وتستمر حادثة التواصل إرسالاً واستقبالاً وتغذية راجعة وإرسالاً تكميلياً يمثل روح التواصل الحقيقي ، والتفاعل هو إيقاع الحياة النشط في التواصل إذ أنه يدفعه وينميه ويثريه .

٥) **الدينامية** بما تعني من الحركة الدائبة ، فالأحداث متغيرة لا تستقر على حال حسب ما تتجه عملية التفاعل بين الأطراف وحسب تغير أشكاله والعوامل المؤثرة فيه .

٦) **التزامن والتعاقب**: أي أن تتزامن عملية الإرسال والاستقبال أو التأثير والتأثر أو تتعاقب،

٧) **التأثير** : يعد التأثير من أهم خصائص التواصل إذ ينبع جزء كبير من أهمية التواصل من إمكانات التأثير التي ينطوي عليها .

٨) **الكلية** : تصدر كلية التواصل عن كلية الذات عموماً فالفعل التواصلي ليس فعلاً مفرداً معزولاً فالتواصل بين الذات والآخر تشمل كافة الإمكانات وكيفية استخدامها والغايات المراد تحقيقها من عملية التواصل .

إن هذه الكلية كخاصية من خواص التواصل تزيد من تعقيد الفعل التواصلي على مستوى الأفراد وتتزايد معها عملية التعقيد في حالة ما إذا كان الأنا (أمة) والآخر (أمم) تختلف في منطلقاتها وأيديولوجياتها واستراتيجيتها وأهدافها وثقافتها .

٩) **الأخلاقية** : إن عملية التواصل لا تعني استخدام الإمكانات على إطلاقها في تحقيق الغرض على نحو ماكيافلي ، فالتواصل لا يعني المراوغة والتحايل والخداع ولا يعني قلب الحقائق ، إنه يعني وببساطة الحقيقة في صورتها المؤثرة والفعالة . وثمة من يرى أن التواصل محايد ، وإنما تستخدمه الذات والآخر إما بصورة أخلاقية أو غير أخلاقية ، في حين يعتبر البعض الآخر من المفكرين أن البعد الأخلاقي جزء من الفعل التواصلي فالمراوغة والتمويه ليست أفعالاً تواصلية إلا في ظاهرها وحسب ، أما في حقيقتها فهي تنتمي إلى الزيف والوهم الذي تخفي حقيقة أيديولوجية ما .

د – أن العوامل المؤثرة في عملية التواصل مختلفة ، منها ما هو ذاتي يكمن في كلا الطرفين (الذات والآخر) ، ومنها ما هو خارجي عنها ، ومن أهم المؤثرات في عملية التواصل :-

١) **الكفاية** : والكفاية في التواصل ضربان : الكفاية اللغوية المتمثلة في إتقان لغة المخاطبة والتلقي الواعي لرسائل الآخر ، والكفاية التواصلية التي تعني وعي الذات بالقواعد التي تحكم التفاعل التواصلي والقدرة على استخدام هذه القواعد على نحو ملائم وفعال ، ويقتضي ذلك إتقان الذات لمهارات كيفية المخاطبة ومراعاة الدور الذي تلعبه المكانة في تحديد كيفية المخاطبة والتغلب على الخوف من عملية التواصل .

٢) **السياق** : يحدث التواصل دائماً في سياق ما تحدده بيئة التواصل ومناخه وتؤثر على شكله ومحتواه . وللسياق ثلاثة أبعاد رئيسة (مادي ، وزمني ، ونفسي

اجتماعي) يحكم هذه الأبعاد علاقة التداخل والتأثير المتبادل . والمتتبع للتواصل بين الذات (الشرق) والآخر (الغرب) على مر القرون السالفة يتبين إلى أي مدى لعبت أبعاده المادية والزمنية تفاعلات مختلفة صاغت وعياً نفسياً واجتماعياً اختلفت خصائصه وسماته باختلاف البيئة وحركة الزمان وهذا ما يمكن أن يسمى بتكامل السياق .

٣) **الخبرة المشتركة** : يكون التواصل أكثر فعالية بمقدار ما يمتلك طرفاه (الذات والآخر) خبرة مشتركة في موضوع التواصل من حيث الأبعاد والعوامل المؤثرة فيه ، ويشترط ذلك تحديد أبعاد الاتفاق كأرضية للتحاور والتواصل فيما هو محل اختلاف لا يهدف القضاء عليها نهائياً وإنما كوسيلة ، ومن ثم فإن استهلاك جهدنا حتى الآن في تبين الموقف من الآخر رفضاً أو قبولاً مطلقاً يعد بمثابة القفز فوق سطح المعنى وتجاوز لمكونات بنية التواصل التي أشرنا إليها مسبقاً .

٤) **مفهوم الذات** : يدور التواصل بين ذاتين : ذات المرسل وذات المستقبل ، والذات لا تتواصل فقط بآليات الخطاب والعقل بل بكليتها ، ولذلك يعد مفهوم المتواصل عن ذاته عنصراً أساسياً في عملية التواصل فضلاً عن مفهومه عن الآخر ، فمن يمتلك المفهوم الإيجابي عن ذاته ، والثقة بها وبمكنونها ، والتقدير الموضوعي —وليس المثالي — للقدرات الذاتية ، وحسن التكيف ، والإدراك السليم للآخر ، فإن فرصته للقيام بتواصل فعال وناجح تعدو أكبر .

وعلى ضوء التأصيل النظري لبنية التواصل وأبعادها المختلفة التي حاولت الدراسة إنجازه في هذا الجزء ثمة العديد من التساؤلات التي تطرح نفسها في إطار علاقة الشرق بالغرب (الذات بالآخر) من حيث الإشكالية والموضوع والمنهج منها اومثالاً لها : إلى أي مدى تسمح العلاقة التي تقيمها مع الغرب بأن تنظر فيه نظرة الباحث في موضوع بحثه ، والعالم في موضوع العلم ؟ وإلى أي مدى يمكن النظر في موضوع العلاقة بالذات ؟ وأين تقع الإشكالية في موضوع العلاقة مع الغرب ؟ هل تمتلك طبيعة أيديولوجية تعبر عن ارتباط الفكر بالأصول ؟ أم أن طبيعتها الأيديولوجية تحجب وتغطي غياب الواقع عن الفكر ؟ والفكر عن الواقع ؟ والموضوع عن العلم ؟ والعلم

عن المعرفة ؟. فالتحليل المنطقي يقوم على صياغة الانساق ،وتصدر الاستنتاجات عن مسلمات أساسية ، فإذا لم تكن المسلمات صحيحة انهار البناء المنطقي بكامله وانهارت الحجج المنطقية معه(٥). ومن ثم يأتي طرح الدراسة في جزئها الثالث كمحاولة للتحليل والنقد للاستشراق والاستغراب كآليات ومرجعيات تحمل في ظاهرها بحمل أبعاد التواصل على الصعيد النظري والفكري وتخفي في باطنها كل المعاني المشكلة لوعي الآخر بالذات ، ووعي الذات بالآخر .

ثالثاً:جدلية الأنا والآخر رؤية نقدية .

عبر عن جدلية الأنا والآخر (الشرق والغرب) مصطلحان مثّل أحدهما (الاستشراق) علمٌ له منهجيته ورواده وإفرازاته ونتائجه ، وثانيهما (الاستغراب) ظهرت له في الآونة الأخيرة إرهاصات تعددت الآراء حولها ما بين مساهم في بلورته أو محاولاً لوأده في مهده . وتعرض الدراسة لهما في هذا الجزء كمحاولة للخوض في جدلية العلاقة بينهما في سياق التواصل من ناحية ، وكتمهيد لما تسعى إليه الدراسة في جزئها الرابع من تشخيص الواقع ومظاهر الأزمة وجذور العلة ومكنونها في الذات أم في الآخر .

إنا أمام منحيين في فهم هذه العلاقة ؛ منحى يحاول أن يكشف عن الخطاب الغربي الاستشراقي بما يحتشد في داخله من رؤى استعلائية تدعي التفوق والتميز، وتنظر إلى الآخر نظرة دونية تحط من قيمته ، وتراه وفقاً لتصوراتها الخاصة وليس على نحو واقعي موضوعي .

أما المنحى الثاني فيحاول أن يواجه خطاب الفريق الاستشراقي بجعل الغرب موضع دراسة من قبل الشرق ليسترد اعتباره ، وليكشف عن زيف القناع الحضاري الذي يلبسه ، وليحد من الاندفاع نحو حضارة الآخر الغربي ، الأمر الذي من شأنه أن يهز ملامح الهوية الخاصة ، ويعيق نموها ويسلبها قسماتها المتميزة .

من هنا كان لابد من التعرف على ملامح الاستشراق في الفكر الغربي المعاصر ثم ملامح الاستغراب وذلك على النحو التالي :

الاستشراق مصطلحاً :

الدلالة الأساسية لهذا المصطلح توميء بشكل رئيس إلى الاهتمام العلمي أو الأكاديمي الغربي بالثقافات الشرقية ، أو الآسيوية بما في ذلك الشرقين (الأقصى والأدنى)، بما يتضمنه ذلك الاهتمام من دراسة وتحقيق وترجمة ،وتشير من ناحية أخرى إلى توجهات في الفنون الغربية سواءً التشكيلي منها أو الأدبي تم استلهام الشرق فيها وتوظيفه فنياً واستثماره جمالياً .(٦)

هذا هو الإطار المفترض لهذا التوجه حيث البراءة العلمية والأكاديمية ، ولكنه في واقعه يتكشف عن أبعاد وأغراض أخرى ومنحى منحاز يفتقد إلى البراءة كما اتضح في دراسات المفكرين المعاصرين .

وقد قام المستشرقون في حدود مهمتهم المفترضة بالكشف والجمع والتقويم والفهرسة ، ولم يكتفوا ببذل هذا الجهد لذاته ، بل عمدوا إلى درسه وتحقيقه ونشره وترجمته والتصنيف فيه . من منشئه وتطوره وأثره وموازنته بغيره ، عاكفين عليه وواقفين مواهبهم ومناهجهم وميزاتهم له ، مصطنعين لنشره المعاهد والمطابع والمجلات ودوائر المعارف والمؤتمرات حتى بلغوا فيه منذ عشرات السنين- وفي بلدان شتى ولغات مختلفة -مبلغاً عظيماً من ادعاء العمق والشمول والطرافة ، وأصبح جزءاً لا ينفصل عن تاريخنا وتراثنا .

ووفقاً لهذا التعريف للاستشراق فإننا أمام ظاهرة تتشابك فيها العلائق بين ما يطلق عليه المعاصرون (الذات) التي تمثل ذاتنا الشرقية بمفهومها العربي والإسلامي تراثاً وتاريخياً وثقافة وحضارة وإنساناً ، وما يسمونه (الآخر) ويقصدون به تحديداً الغرب فلسفة ونهجاً وتفكيراً وسياسة ومصالح . وهذه العلائق المتشابكة يتداخل فيها الذاتي والموضوعي والعلمي والمصلحي حياداً وانحيازاً تحقيقاً وتزييفاً ، وهو ما يقتضي فضاً للاشتباك بين خيوطه والتعرف إلى مصادره وموارده ودوافعه وحوافزه وأغراضه ومقاصده في إطار جدلية العلاقة بين الذات والآخر .

ومن الواضح أن تعريف الاستشراق يتجاوز المفهوم الاصطلاحي إلى مفهوم أوسع يتضمن حديثاً عن الموقف الاستشراقي برمته (أي وعي الآخر بالذات) ، ولهذا نرى (برناردلويس) يحاول استبعاد المفهوم الأيديولوجي ليرى أن الاستشراق تطور من كونه

مدرسة في فن التصوير تضم فنانين ينتمون إلى أوروبا الغربية مغرقين في الرومانسية إلى كونه فرعاً من فروع التراث البحثي (٧).

وشيئاً فشيئا نما الاستشراق وتعددت مدارسه ومذاهبه ، فأصبح للغات الشرقية كراسيها في الجامعات ، وانتشرت المكتبات الشرقية والمجلات الشرقية والمطابع الشرقية في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال والنمسا وهولندا وبولونيا والدنمارك ، وانتشرت الجمعيات الاستشراقية وعقدت المؤتمرات .

وقد تعددت مجالات البحث الاستشراقي ، فعالج المستشرقون مسألة الوحي والنبوة ، وتحدثوا عنها كما يتحدث الناس عن الدراويش ، وكما يتحدث علماء النفس عن أبطال التاريخ وعظماء الرجال وقادة الثورات ، إذ ذهب (هوبرت جريمي) إلى أن الإسلام لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية بل كمحاولة للإصلاح الاجتماعي ، وأن فكرة الحساب والعقاب وسيلة ضغط معنوي لتأييد دعوته ، وكذلك يرى (جب) أن محمداً "صلى الله علية وسلم " ككل شخصية مبدعة يتأثر بضرورات الظروف الخارجية ، ويرى (لوبون) أن محمداً صلى الله عليه وسلم من المتهوسين مما يدل على جهل لوبون بالرسالة الألهية والشخصية النبوية، وهناك من يرى القرآن الكريم دون كتب الهندوس الدينية القديمة ، وأنه مجموعة من عقائد خرافية وآداب سطحية . وآراء المستشرقين في مجملها عدائية تكرس السمة العامة للاستشراق ، وإن كان هناك من يعارض هذه النبرة العدائية في الخطاب الاستشراقي كما فعل المسشرق السويدي (توارنديه) في كتابه (محمد : حياته وعقيدته) .

مفهوم الاستشراق وحدوده في الفكر العربي المعاصر :

اختلفت زاوية الرؤية إلى الاستشراق لدى المفكرين العرب المعاصرين ، وربما كان أشمل هذه التعريفات ما ورد في الموسوعة الميسرة للأديان المعاصرة إذ عُرّف بأنه (ذلك التيار الفكري الذي تمثّل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي ، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته . ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية

عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة ، معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما) . (٨)

ومن الواضح أن هذا التعريف أشار إلى جانبين مهمين : الأول يتمثل في البحث العلمي والاهتمام بدرس كل ما يتعلق بالشرق ، والجانب الثاني يومئ إلى الموقف الفكري الذي يشكل الموجه الرئيس لذلك ، والجانبان يعالجان مسألة جوهرية هي علاقة الغرب بالشرق من منظور غربي صرف ، وغايات تتجاوز الغايات العلمية البريئة إلى أخرى منحازة ومستثمرة ، غير أن ثمة بعداً آخر يتصل بالجانب الإبداعي المحض ، إذ عكف بعض المهتمين بالشرق إلى استلهام الصورة الشرقية بآفاقها الروحية الرومانسية في الفنون التشكيلية والآداب الغربية . ولكن الفكرة التي ترسخت في أذهان العديد من المفكرين العرب المعاصرين بعامة تركز على الانحياز الغربي ضد الشرق في أبحاث ودراسات المستشرقين التي كرّست لمعالجة الحضارة والديانات والثقافات الشرقية .

ولعل من الأدلة القاطعة على هذا التوجه ما يُعدُّ بداية رسمية للاستشراق حيث أتخذ مجمع الكنائس في فينا عام ١٣١٢م قراراً بإنشاء كراس للدراسات العربية والعبرية واليونانية والسريانية في جامعات السنورد وباريس وبولونيا وأفيينو وسالا ماتكا رغبة منها في الإفادة من الحضارة العربية الإسلامية التي كانت مهمينة في ذلك الوقت ، حيث اعتبروا هذه الهيمنة خطراً يهدد العالم المسيحي ، ولهذا التزموا وجهة الطعن في الثقافة الإسلامية للحد من تأثيرها على النصارى فبدأوا بترجمة معاني القرآن الكريم في أسبانيا عام ١١٤٣م ، وكانت هذه الترجمة متجنية متعصبة ، وكان معدها (بيتر ميجل) قد جعلها جزءاً متمماً للحروب الصليبية التي كانت قد بدأت ، فكانت هذه البداية العدوانية مؤشراً على موقف الخطاب الاستشراقي .

ولقد تبلورت فيما بعد مدارس استشراقية أثرت في جيل من المثقفين والأكاديميين العرب حيث درس بعضهم في الجامعات الغربية وكان لهم نظرياتهم في دراسة التراث الغربي أمثال (مارجليوث) و (جولدتسيهر) و (نولدكه) و (ما سينيون)و (رنيان) وغيرهم كثيرون ، وقد تبلورت مناهجهم الخاصة في مختلف المجالات . وتذهب العديد من الرؤى المعاصرة إلى فهم الاستشراق على أنه يقوم على خصوصية الغرب واختلافه عن الشرق ،

وهذا الاختلاف هو العنصر الأساس في تكوين الشرق ذاته . وفى تصور الغرب للشرق ، فالغرب — من وجهة نظر الغرب الاستشراقي — المسيرة الطبيعية القويمة للتاريخ بدءاً من العصور القديمة وانتهاء بالعصر الحاضر ، وضيق الأفق و الإقليمية الساذجة والخواء الحضاري واللاتاريخية سمات الحضارات الأخرى ، ولأن الغرب اعتصم بتفوقه وافتتن بتميزه لم يستطع قبول فكرة اختلاف الآخرين عنه وخصوصيتهم ، إنه نظر إلى الشرق من خلال مفهوماته المطلقة .

موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الاستشراق :

ينظر جمع من المفكرين الإسلاميين إلى الاستشراق على أنه حركة فكرية هائلة متشعبة شملت مناطق واسعة جداً من العالم مركزة على العالم الإسلامي بخاصة فجاءت كتابات المستشرقين عن الإسلام (تتراوح بين الجهل التام والمعرفة الموجهة ، بين الإسفاف الشنيع والموضوعية النسبية ، بين الافتراء والإنصاف والاستعلاء والنزاهة ، بين الفحش الصارخ والتسامح العامل) وهذا الرأي معتدل إلى حد كبير ، فثمة من رأى أن الاستشراق كان أداة بشعة لتصوير الإسلام بصورة زائفة لمنع عبوره إلى الحياة الأوربية ، وأنه اختفى وراء براقع العلمية والموضوعية والحياد وأنه لعب دوراً تضليلياً ضخماً في حياة المسلمين وتاريخهم وثقافتهم ودينهم ، (ولقد تغلغلت الكتابة الاستشراقية المتعددة الجوانب في حياة الأمم خلال قرن متكامل بحيث نفذت إلى كل جزئية من جزئياتها) .(٩)

وقد عمد الفكر العربي المعاصر -خصوصاً الملتزم بالرؤية الإسلامية- إلى الرد على مطاعن المستشرقين ، وخطل أفكارهم على أسس من منهج الإسلام في مجادلة أهل الكتاب وغيرهم ممن كانوا يثيرون الشبهات على هدى الإسلام وتعاليمه وفي ضوء الأسلوب الذي رسمه القرآن الكريم من بيان للحق والدعوة إليه " **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم** ... " (١٠) .

وكذلك إدراك السنن الإلهية في النفس والكون والحياة وتلافي الاصطدام بها " **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين**... "(١١)

والمناقشة الموضوعية النـــزيهة ، والتزام الأدب ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، والتنبه إلى ما قد يلجؤون إليه من التحريف والتلبيس والكتمـــان والمخادعـــة والحســـد والتعصـــب والاستعلاء ، وضرورة إنصاف طائفة من أهل الكتاب أنصفهم القرآن الكريم "... **ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون** " (١٢)

الاستغراب في الفكر العربي المعاصر والموقف منه

ثمة من يرى أن كتاب " مقدمة في علم الاستغراب " ليس المحاولة الأولى في هـــذا العلم ، وهذا ما أشار إليه صاحب الكتاب نفسه في كتابه هذا إذ تحدث عن نشأة (الأنا الحضارية) في التراث الإسلامي ، وعلاقة الحضارة الإسلامية بالحضارة الإغريقية التي حولها العرب الى موضوع للدراسة ، ولذا فإننا نلحظ جذور الاستغراب عند ابن خلدون الذي صور أهل الشمال وتحدث عن الفرنجة وبلادهم وتاريخهم . ولو اقتصرنا علـــى التـــاريخ الحديث فإننا سنجد أن محاولته هذه مسبوقة بعلمين شهيرين هما (رفاعة رافع الطهطاوي) في كتابة (تخليص الإبريز في وصف باريز) ،وكما يتضح من العنوان فإنه يشير إلى معنى استخلاص الفائدة من جعله لفرنسا "بوصفها ممثلة للغرب" موضوعاً لدراســـته ، وهـــو يتحدث من منظور العربي المسلم الذي لا يستسلم لواقع الحضارة الغربية ولا ينبهر بها كما أنه لا يتعصب ضدها ، فهو لم يترك جانباً من جوانب الحياة هناك إلا تحدث عنها . (١٣)

ويرى بعض الدارسين أنه أول جهد مبكر يقوم به أحد علماء الشرق بدراسة الغرب فهو رائد الاستغراب في عصرنا الحديث .

أما العلم الثاني فهو (خير الدين التونسي) في كتابه (أقوم المســـالك في معرفـــة أحوال الممالك) الذي صدر بعد ربع قرن من كتاب الطهطاوي وذلك عـــام ١٨٦٧م ، ويهتم التونسي بإيراد الأدلة على وجوب الاستفادة من التمدن الغربي ، ويتجاوز حـــدود المفهوم ليدرس التاريخ الغربي والواقع هناك من وجهة نظر شرقية ويبين أن غايته تصحيح صورة الشرق المسلم في ذهن الإنسان الغربي ، والرد على الصورة التي صاغها الغربيون في دراستهم للشرق المسلم ، كما أنه يشرع في دراسة متمهلـــة لطبيعـــة التمـــدن الأوروبي

وأطواره المتعاقبة وتجلياته العلمية والسياسية ، وينتقي النموذج الحضاري الـذي يناسـب البلاد الإسلامية فيقول : (وإني لا أزال أقول إن ترتيب التنظيمات الإداريـة والسياسـية المشار إليها من لوازم وقتنا هذا كما أقول صدعاً بالحق إن كل موظف لا يرى الاحتساب عليه في وظيفته فهو عديم الأمانة والنصيحة لدولته ووطنه) (١٤) .

ومن الواضح أنه ينظر إلى الغرب من منظور إسلامي ويدعو إلى الاستفادة ممـا بلغـوه ، فالحكمة ضالة المؤمن في رأيه وهو ما يهدف إليه من دراسة الغرب . و لم يقتصر الأمر عند هذين العلمين البارزين في تراثنا القريب ، بل هناك عدد من المعاصرين الذين تبنوا الدعوة لتأسيس علم الاستغراب .

إن علم الاستغراب علم غرضه تحويل الغرب إلى موضوع للدرس بعد أن كان ذاته دارساً.. أنه يريد تبديل المواقع بحيث يغدو الشرق مصدراً للعلم والمعرفة بعـد أن كـان موضوعاً للمعالجة والتقويم ، فالاستغراب حركة مضادة للاستشراق ومحاولة للـرد علـى المركزية الأوربية كما أراد المستشرقون أن يكرسـوها .. إنـه في حقيقتـه رد علـى الاستشراق الذي نقد العقل العربي ، وذلك بالعمل على نقد العقل الأوروبي بحيث يصبح المشروع الثقافي الغربي موضوعاً لخطاب علمي .

إن أهم ما يؤخذ على جعل الغرب موضوعاً للدرس في مرآة الأنا التي يفترض أن تكون مرآة إسلامية الاكتفاء باستعراض مراحل تكوين الوعي الأوروبي استعراضاً تاريخياً محايداً يستوعب فقط الإشارة إلى المصادر اليونانية والرومانيـة والمسـيحية واليهوديـة والأوربية ، ويكتفي بتناول تكون هذا الوعي وتياراته الأولى كالعقلانية والتجريبية وذروة هذا التكوين فيما بعد (الكانتنية والرومانسية والهيجلية والمثاليـة والوضـعية والليبراليـة والاشتراكية وما سمي بنهاية البداية ممثلة في نقد المثالية والتجريبية والجمـع بـين المثاليـة والواقعية ، وبداية النهاية كما في الوجودية والشخصانية ومدرسة فرانكفورت والفلسـفة التقليدية) من خلال العقلية الأوروبية والتنظير العقلي الصرف ، مع أن مقتضيات التواصل تدل على ضرورة هضم كل هذه الأبعاد وتمثلها في استلهام أبرز ملامح ومكونات الوعي الأوربي (جدل الأنا والآخر) وما إلى ذلك .

لقد كان التناول عاماً مكتفياً بالكليات دون الجزئيات ، تصنيفياً أكثر منه تحل
و لم يتبين أثر المذاهب الأوربية في الفكر العربي المعاصر ، من منطلق (تجميعهم في مذاهب وتيارات واتجاهات يساعد على أخذهم جميعاً في شتلات في قبضه واحدة حتى لا نتوه في الأجزاء والأفراد والشخصيات والمذاهب التي يجمعها أكثر مما يفرقها ، هدفنا كان وضع الوعي الأوربي بدلاً من تركه مطلق السراح يصول ويجول كيفما يشاء في سجن كبير ومذاهبه في زنازين متجاورة حتى لا يتوه أحد منهم ولا نتوه في اقتفاء الأثر) (١٥) .

لقد هدف صاحب كتاب "علم الاستغراب" إلى تكوين قاعدة فكرية استراتيجية ممثلة في الاستغراب مقابل (التغريب) حيث يضيع الأنا في الآخر ، وذلك لحل المعضلات السبع التي تواجه المسلمين اليوم بدءاً من تحرير الأرض ومروراً بالعدالة الاجتماعية وإطلاق الحريات والوحدة والتنمية والهوية وانتهاءً بالتعبئة ، ولكنه يخطيء الطريق حين يستثمر الفكر الديني كموروث يهدف إلى تحريك الذات والتحصن من الآخر فهو يساوي بين القرآن باعتباره سلطة وتوجيه في وعي الناس وبين أي موروث آخر فيسقط في منزلق عقدي خطير ، وهو ما لفت انتباه بعض المفكرين أمثال عبد السلام ياسين في كتابه " الإسلام في مواجهة القومية العلمانية " حيث حاول إخراج حنفي من دائرة التفكير الديني، إذ ركز على الاستثمار الخاطئ للمسألة الدينية ، فالدائرة التي يتحرك فيها حسن حنفي دائرة علقية بحتة .

ويرى البعض أن الاستغراب يوشك أن يقع في نفس الأزمة التي وقع فيها الاستشراق ، فإذا كان الاستشراق قد جعلنا موضوعاً من خلال مفاهيمه وأدواته الفكرية فإننا إذا فعلنا ذلك مع الاستغراب سنواجه باحتجاج الآخر لأننا نكون قد عمدنا إلى جعل الذات هي المركز والآخر هو المهمش ، فالإسلام هو الذي يمكنه من جعل الأنا والآخر موضوعاً في حيادية مطلقة (**كلاً نُمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً**)(١٦)

كما يؤكد الموقف الإسلامي على رفض موالاة هؤلاء الغير (**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**) (١٧) ورفض الإسلام التبعية

والتقليد " لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم " . قلنا : يا رسول الله آليهود والنصارى ؟ قال : " فمن !" ؟(١٨) .

إن جعل الآخر الغربي موضوعاً في علم الاستغراب يفترض وجود بنية للوعي الأوروبي ، وفكرة البنية فكرة غربية ولذلك فإن اصطناع هذا المنهج الغربي في دراسة الأنا اقتراض للمعيار الغربي .

لقد بدأ علم الاستغراب ذا مهمة محددة تتمثل في الرد على المركزية الأوربية وبيان كيف أخذ الوعي الأوروبي مركز الصدارة عبر التاريخ الحديث ، فمهمة هـذا العلـم الحديث رد ثقافة الغرب إلى حدودها الطبيعية بعد أن انتشرت خارج حدوده إبان عنفوانه الاستعماري حيث سيطر على أجهزة الإعلام وهيمن على وكالات الأنباء ودور النشـر ومراكز الأبحاث العلمية والاستخبارات ، ومن ثم ظهرت الدعوة إلى تأسيس هذا العلـم بغية القضاء على أسطورة الثقافة العالمية وجعلها على قدم المساواة مع الثقافات الأخرى . لقد جعل الغرب من المثاقفة acculturation في حقيقة الأمر القضاء على الثقافـات المحلية لصالح هيمنة الثقافة الغربية ، من هنا جاءت مهمة الاستغراب في محاولة للقضاء على ثنائية المركز والأطراف على مستوى الثقافة والحضارة ، فالثقافة الغربيـة هـي المركـز والثقافات اللاغربية هي الأطراف حيث العلاقة بينهما علاقة المعلم بالتلميذ والسيد بالعبد، فمهمة علم (الاستغراب) إعادة التوازن للثقافة الإنسانية بدل رجـوح كفـة الـوعي الأوروبي في مقابل كفة الوعي غير الأوروبي المرجوحة ، ورفع الظلم التاريخي الواقع على الثقافات الأخرى . ويهدف علم الاستغراب إلى تصحيح المفاهيم المستقرة التي تكشـف عن المركزية الأوربية من أجل إعادة كتابة تاريخ العالم من منظور أكثر موضوعية وحياداً وعدلاً (١٩).

وتصبح دراسة الاستغراب في إطار التواصل إذ ما ركز على زاويتين :

الأولى ـــ بيان ما يمكن أن يستفاد منه من تراث الآخر الغربي ، وليس مجرد إنفاق الوقت ودراسته دراسة موضوعية علمية ، ففهم الآخر وتطور وعيـه ومراحـل تكونـه الفكري يكون بهدف إبراز التمايز بيننا وبينه وصدوره عن قاعدة عقدية مختلفة عن الأسس العقدية التي بنى عليها تراثنا وتشكلنا على مدى التاريخ ، وكذلك بيان أثرنـا في الآخـر

ومدى استفادته منا ، وكيف يمكن أن نستفيد منه عبر هذه المرحلة ، والحرص على كشف فلسفة المناهج التي اصطنعها بحيث نكون على بصيرة من أمرنا حين نحاول الاستفادة من تطبيقات هذا المنهج ، إذ أن الإجراء لا ينفصل عن القاعدة الفكرية التي أفرزت هذا المنهج خصوصاً فيما يتصل بالعلوم الإنسانية في الأدب والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس والتربية وما إلى ذلك من أجل أن ننظم عملية المناقضة وفق أصول علمية وعدم الانفتاح العشوائي على الآخر حتى وإن كان ذلك في إطار رده إلى حدوده وفهم خصوصيته ، وحتى في الشق الذي ينهض على الجانب العلمي المحض .

الثانية : لا بد من أن تكون مرجعية الاستغراب إسلامية محضة بحيث يحتكم في تقويم الإنجازات التي حققها الغرب من خلال معيارية شرعية ، أما منطق الاستغراب المعكوس – الذي أشار إليه (حسن حنفي) عند الجيل الثاني ثم الثالث والرابع والحالي من المستغربين الدارسين لتراث الغرب من مفكرينا ، والذي ينهض إما على الرفض أو التوفيق أو القبول خصوصاً لدى التيارين الليبرالي والعلماني الذي انتهى إلى نشأة ظاهرة التغريب– فهومنطق مرفوض . وقد تجلت لدى التيارات الثلاث رؤى متباينة دون منطق محكم بل مجرد رؤية الأنا في مرآة الآخر مرة ، ورؤية الآخر في مرآة الأنا مرة أخرى عن طريق منطق الحضور والغياب ، أو ما أسماه (جدول الإيجاب والسلب) مثل هذا المنطق – كما سبق وأن أشرت – منطق مرفوض لأنه لا يحتكم إلى مرجعية شرعية واضحة (٢٠) .

فإلى أي مدى تكشف هذه القراءة التحليلية لجدلية الذات والآخر ، من خلال طرح الاستشراق والاستغراب كآليات لتقبل التواصل بين الشرق والغرب ؟ وما حجم الانعكاسات التي خلفتها منهجية تلك الآليات على وعي كل من الذات والآخر لعملية التواصل المنشودة ؟ ، وإذا كانت الرؤية السليمة لنسق التواصل تبدأ من الوعي الذاتي للسياق الذي يتم في إطاره التواصل ، فما أبرز مظاهر الواقع الثقافي المعاصر التي تشخص واقع علاقة الذات بالآخر ؟ ، هذا ما تسعى الدراسة إليه في الجزء التالي .

رابعاً : أبرز ملامح الواقع الثقافي المعاصر للذات ووعيها بالآخر :

يعيش العالم فترة تفاعل ثقافي واسعة ، و تزيد من سعتها طبيعة التغيرات السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية الدولية الهائلة ، و التطور الثقافي الفضائي الذي أتاح للاتصال الثقافي مجالات أرحب ، مما أوجد حركة اتصال دولي لم يسبق لها مثيل ، و تجد الذات (العرب و المسلمين) نفسها طرفاً في عملية الاتصال الدولي ، إلا أن القضية الأساسية هي في مستوى مشاركتهم في عملية التواصل ، إذ أن ضعف المشاركة عاملاً من عوامل سعة الهوة بين الذات والآخر ، كما هو متفق عليه بين المفكرين ، وفي هذا الصدد طرحت العديد من الأسباب والعوامل التي توضح أبرز مظاهر الواقع الفكري المعاصر للذات ووعيها بالآخر ، يعد من أهمها :

١) الإحساس الواضح لدى قطاع واسع بأن الثقافة الغربية فرضت نفسها خلال القرون الثلاثة الأخيرة على العالم حتى ولدت شعوراً بالنقص أمام تلك الحضارة مما دفع الذات إلى تكوين أسطورة لنفسها عن الغرب تحاول من خلالها تحويل مزايا الغرب إلى نقائص ، وتحويل نقائصنا إلى مزايا عن طريق تمجيد النفس والتقليل من شأن الغرب مما أضعف مواجهتنا له بسبب عدم فهمنا (٢١) .

٢) أن المواقف المتخذة من قبل الكثير من المدارس الفكرية والسياسية تجاه الغرب والحضارة الحديثة هي مواقف لا تعكس حالة الاعتزاز بالذات الحضارية للأمة ، بل تنطلق من أرضية معرفية مغايرة ومعادية للأرضية الإسلامية . لذلك فهي مواقف في إطار الآخر (الغرب) لا خارجه ، بمعنى أن مؤداها الأخير هو الاندماج في الغرب والذوبان فيه ، فالمشروع العلماني المطروح في الساحة العربية والإسلامية ومن خلال تجارب عديدة هو مشروع غربي الانتماء والوجهة ولايؤدي إلاّ إلى الارتماء في أحضان الغرب ، كما أن مشروع الانعزال والانكفاء على الذات يؤدي من الناحية العلمية والفعلية إلى حالة من الازدواجية الرهيبة التي تصيب الإنسان ، ظاهراً وفي العلن يمقت الغرب ومنتجاته وإنجازاته وفي الخفاء والسر يلهث وراء اقتناء آخر إنتاج الغرب

وتقنيته بما يتناقض مع حالة التفاعل التواصلي الذي ينطلق من حالة الاعتزاز بالذات وسيادة الذات الحضارية في الفكر والسلوك (٢٢) .

٣) اختزال ثقافة الذات وحضارته وواقعه ومفاهيمه في البحث عن الأشكال المتوافقة أو المنطقية مع مفاهيم وأشكال الثقافات الأخرى دون الالتفات إلى الشروط التاريخية والاجتماعية لكلتا الثقافتين ، فأفق المغايرة والاختلاف من الآفاق المهمة لأي ثقافة يوجهها إلى أسئلتها الخاصة وتحدياتها الملحة ويدفع باتجاه الحوارات النقدية الواعية مع الثقافات والمكونات المعرفية الأخرى ، وإن اختلافاً مشروطاً بالوعي ومنظوراً يقوم على التواصل مع الثقافات الأخرى من خلال إيجاد نسق يعين الثقافة على فهم ذاتها وغيرها بما يدفعها من واقع المطابقة إلى أفق الاختلاف ، إذ أن السعي إلى المطابقة يؤدي إلى التبعية للآخر، وبما أن أرضية الاختلاف غير ممهدة فإن الذات بحاجة أساسية لنقد أنظمة التمركز الداخلية في الثقافة نفسها بما فيها المفاهيم الخاصة بالمجتمع والسلطة والمعرفة والفكر والاقتصاد (٢٣) .

٤) بفعل عمليات التحديث القسرية والسريعة التي أصابت العالم العربي والإسلامي بدأ الواقع المعاش يشكل وفق منظومات وقيم جديدة ، وهذا أدى بشكل أو بآخر إلى تفكيك منظومة القيم السابقة ، وبطبيعة الحال فإن هذه العملية وتداعياتها شكلت تحدياً صريحاً للذات العربية والإسلامية ، فالرجوع إلى التراث وقراءته من جديد هو في حقيقة الأمر من أجل مقاومة الانسحاق والاستلاب القيمي والاجتماعي وتحقيق التوازن المطلوب للعالم العربي والإسلامي أمام تحديات الواقع المعاصر ، وتحقيق التطلعات لا يمر عبر إلقاء الذات والتراث لأنه لا يمكن لأمة أن تحقق تطلعاتها وهي فاقدة لذاتها ، إذ إن حضور الذات الحضارية للأمة الناهضة أمر لابد منه فهي وحدها القادرة على تحريك عوامل وعناصر المجتمع الفاعل والمؤثر (٢٤) .

٥) ما يزال الجدل حاداً حول حدود استهلاك المواطن العربي للإبداع الفكري الأجنبي ، وفيه يتضح أن قلة الإبداع العربي على مستويات النمو عموماً،

والنتاجات العلمية والفنية والأدبية لا ترقى إلى مستوى إثارة اهتمام الآخـــر ، لذا فإن النتاج الفكري يتجه من الغرب إلى الشرق ، وتبدو الثقافة العربيـــة في بعض الجوانب محاكية لبعض جوانب الثقافة الغربية ، ومن جانب آخر فـــإن قطاعاً واسعاً من المجتمع العربي والإسلامي يجد في الطروحات الفكرية تكراراً أو تهرباً من مواجهة مستقبل جديد لذا يتجه ذلك القطاع إلى تلقف بعـــض جوانب الاتصال الثقافي الغربي (٢٥) .

٦) التأثير في اتجاه واحد ، إذ أن عملية الاتصال الثقافي غير متكافئة في أوضـــاع نموها الثقافي والسياسي والاجتماعي ، وهناك تدفق غير متوازن بين الغـــرب والشرق ، إذ يتجه الاتصال من الغرب من دون أن يوازيه تدفق من الطـــرف الآخر .

٧) القيود على الحرية ، إذ يدل التاريخ على التسلط وغياب الحرية ، وفي الظروف الحاضرة يعد غياب الحرية أو قصورها دافعاً للاغتـــراب الثقـــافي والهجـــرة والتعرض لوسائل الاتصال الثقافي الغربي مما يعطيها المجال لإحداث تـــأثيرات أوسع في ثقافة الذات (٢٦) .

٨) أحادية النظرة في بعض الاتجاهات الفكرية ، إذ تبلورت في العقود الأخيرة من القرن الماضي اتجاهات فكرية متعددة ويبدو من أغلب الطروحات الفكريـــة ومن بعض أوجه السلوك السياسي أن هناك حذراً واضحاً من الأنانية ، حيث ترى أغلب الاتجاهات في نفسها وحدها سلامة التوجه ممـــا يجعـــل النظـــرة الأحادية واضحة في أغلب الاتجاهات القائمة (٢٧) ، فإذا ما غابـــت عمليـــة التواصل التفاعلي بين مكنونات الذات وأشكال وعيها فكيف يتم ذلك مـــع الآخر ؟.

٩) ضعف الإعلام العربي من حيث طرق القضايا والتقنية ممـــا أدى إلى تـــدني مستوى ثقة المواطن العربي بالإعلام العربي والسعي لتلقي رسائل الغرب الموجه مما يقتضي توسيع قاعدة الكادر الثقافي والإعلامي والفني القادر على الإنتـــاج

المتطور وتوفير الموارد المالية اللازمة والتقنيات الحديثة وكسر العزلة في إطار استراتيجية فكرية وثقافية تمثل أبرز ملامح الذات .

١٠) إشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة من ناحية ، وعزلة المثقف عن محيطه الاجتماعي من ناحية أخرى ، فهل يدرك المثقف أنه لا قيمة لمجليته وهويته وانتمائه ما لم يحول قيمها ومعاييرها وأفكارها إلى قيم ومعايير وأفكار عالمية ؟ وهل يدرك أن الثقافة والهوية التي تتشكل في ظل حاكم يريد إدماج المعرفة بالفكر والتاريخ لصالح حاكميته مآلها إلى الانقراض تاريخياً ؟

إن العقل الثقافي بحاجة إلى الحرية كي يتجاوز لعبة الاتهام والتخوين إلى الحوار الداخلي والخارجي كي يتم التصالح مع الهوية والمواطنة والانتماء الفكري (٢٨).

الخاتمة

من المثاقفة إلى الصدام ، ومن التكامل والتعاطي إلى الصراع بين الحضارات ، يكمن فضاء فكري وثقافي واسع ظل هاجساً بحثياً للعديد من التخصصات قروناً طويلة، وما بين الذات والآخر – الموروث والحديث – الأصالة والمعاصرة – النقل والتقليد – الإصلاح والتنوير – الهوية والذوبان – طرحت الرؤى ، وبينت الاستراتيجيات ، وتأسست أيديولوجيات كمرجعية للفكر ونهج للذات (الـ نحن) في تفسيره ليس فقط لحركة التاريخ القريب والبعيد وإنما في تناول الأحداث اليومية على مسرح الحياة (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بل والعسكرية) . وبدلاً من أن تفرز هذه الجهود مشروعاً فكرياً يستقر عليه رموز الفكر وأعلام الثقافة وتجمع عليه الأمة (الأنا) وتتمثله في فهم الأخر ومن ثم سّبركنه العلاقة معه والكيفية المثلى في التعامل بما يحفظ للذات ذاتيتها وللآخر الاحترام و الخصوصية – بدلاً من ذلك – وكما تؤكد أبرز ملامح الواقع الفكري والثقافي والمشاهد الواقعية الحية – تعيش الأمة اختلاطاً في الأوراق ، وتذبذباً في الرؤى ، وتقاطعات أيديولوجية كان لها تأثيرٌ واضح على حركة الأنا حيال أو تجاه الآخر .

في هذا السياق جاءت الدراسة الحالية بإشكاليتها ومنهجها بغية التحليل والتشخيص لإبراز المظاهر التي تميز الواقع الفكري في إطار الوعي بالذات والآخر على خلفية صحيحة لبنية التواصل بفنياتها ومقتضياتها .

وتوصلت الدراسة إلى جملة من المستخلصات يعد من أهمها :-

- إن اعتبار الآخر هو الداء المسبب لكل مشاكلنا وأزماتنا ومن ثم رفض الآخر مطلقاً ، وكذلك موقف القبول المطلق للغرب من الاندماج والذوبان الكامل في ثقافته وفكره بشكل عام . موقفين يفرغان حياة الأمة المعاصرة من مضمونها كأمة فاعلة عليها أن تنتج من بنات أفكارها ما يتلاءم مع معطيات عصرها وظروف بيئاتها في إطار مرجعيتها ما يحفظ الذات الحضارية والانتماء المتميز من تاريخ وقيم ، وتنطلق من هذه الذاتية للتعامل مع الآخر ، ويصبح السؤال المطروح على المشاريع الفكرية ومضامينها الثقافية والتربوية ، كيف ننتج فكراً تمتد جذوره في مرجعيته بثبات ، ويتعامل بأفق رحب مع سياق العصر ومعطيات الأخر؟ .
- إن فهم الذات أو الأنا ونقدها المستمر بغية تطويرها لا يقل أهمية عن فهم الآخر ، إذ أنهما من مقتضيات استمرار الأمة المتمثلة فيما يلي :
  - إثبات الوجود والتمايز عن الآخرين من خلال رد العدوان الخارجي الذي يهدد أمنها .
  - الوعي بالذات من خلال تموضعها في مكان قادر على صهر أفرادها في بوتقة (الـــ نحن) من خلال وحدة المشاعر والأحاسيس والتوجهات الفكرية والقيمية المشتركة .
  - القدرة على التوليد والاجتهاد والإبداع والتجديد وتنشيط لحركتي الزمان والمكان داخل الأمة .
  - وعي الآخر ويتجلى من خلال التواصل معهم ، ويقتضي ذلك امتلاك لغة التواصل والتقاطع ، ففي وقت التواصل نحتفظ بهويتنا ، أما التفاصل لا ينبع إلا من خلال وعي الذات (نظرياً وعملياً).

- إضافة ما هو مبتكر ومتجدد ومتلائم معنا وإكمال ما هو غير مكتمل في الذات من خلال جدلية الأخذ والعطاء .
- إن التوتر الراهن الذي تشهده العلاقة بين الشرق والغرب يدفعنا إلى مناقشة آليات لإفراز وعي جديد في العالم العربي وبلورته وتكريسه لدى الشرائح المؤهلة شريطة أن تستحضر في الأفق الإيجابيات والسلبيات المرافقة لانتشاره في الأمد القريب .
- إن استيعاب الملامح العامة والخاصة للثقافة الإسلامية والمتمثلة في : الحرية — الرحمة — الإيجابية — الشمولية والتكامل — الأصالة — المرونة — الحيوية — متابعة المتغيرات —الالتزام المطلق بالحق ، توفر مناخاً ومحيطاً ثقافياً وفكرياً كافياً لفهم كل من الذات والآخر والتواصل بينهما في إطار إشعال الحوار والمحاورة والتجاوب إذا ما ارتدت رداء العمل المؤسس القائم على استراتيجيات طويلة / متوسطة / قصيرة المدى ، امتدت بصيرتها إلى كافة أشكال الأداء الفكري والثقافي والإعلامي والتربوي والسياسي والاجتماعي .

هذا وبالله التوفيق .

المراجـــــــــع

١) محمد بلال الجيوس : أنا وأنت مقدمة في مهارات التواصل ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ٢٠٠٢ ، ص ص ٢٢ — ٢٣ .

٢) زكي نجيب محمود ، عربي بين ثقافتين ، دار الشروق ، القاهرة ، ص ١٧ .

٣) لمزيد من التفاصيل راجع :

أ - رودي بارت ،الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، المستشرقون الألمان منذ يتودور نولدلكه ، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة ، دار الكاتب العربي ١٩٦٧م ص١٢٢.

ب- أحمد سمايلوفتش ، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ، دار المعارف ، مصر ١٩٨٠ م ص ص ٢٣-٢٤.

ج- علي حسين الخربوطلي ، الاستشراق في التاريخ الإسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨م ص١٢.

د- ف ، بارتولد ،تاريخ الحضارة العربية والإسلامية ، ترجمة :حمزة طاهر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٦ م ص٣٥ .

٤)لمزيد من التفاصيل راجع :

- محمد بلال الجيوس ، المرجع السابق ، ص ص ٢٣-٣٣ .

- Devito, Joseph A. the interpersonal communication Book .New York ,havper collihs , ١٩٩٢.

- Harper,nancy . human communicatain theory newyork . hayden,١٩٧٩ .

٥)عبد الله إبراهيم ، العلاقة مع الغرب : الموضوع ، الإشكالية ، المنهج ، ط١ ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٣ .

٦)قاسم السمرائي ، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ، منشورات دار الرفاعي، الرياض ، ١٤٠٣ هـ ، ص ١٠٨ .

٧)برنارد لويس ، مسألة الاستشراق ، ترجمة : كامل يوسف حسين ، العدد ١١٩ ، ١٩٨٨ م .

٨) الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، الرياض ،ط٣ ، جـ٢ ، ص ٦٩٧.

٩)محسن عبد الحميد ، أزمة المثقفين تجاه الإسلام ، دار الصحوة ، القاهرة ص ٢١٤.

١٠)سورة آل عمران ، ٦٤ .

١١) سورة هود ، ١١٨ .

١٢) سورة المائدة ، ٨٢ .

١٣)رفاعة رافع الطهطاوي ، تخليص الأبريز في وصف باريز ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص ٢٥٢ .

١٤) خير الدين التونسي ، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة ، تونس ، ١٢٨٤هـ ، ص ١٦٦.

١٥)حسن حنفي ، مقدمة في علم الاستغراب ، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ، القاهرة ط ١ ، ١٤١٢ ، ص ص ٦٠-٦١.

١٦) سورة الإسراء ، ٢٠ .

١٧)سورة المائدة ، ٥١ .

١٨) رواه البخاري ومسلم .

١٩)حسن حنفي ، المرجع السابق ، ص ٦٨ .

٢٠) المرجع السابق .

٢١)فؤاد زكريا ، نظرة العرب إلى الغرب ، محاضرة في الاتحاد العام للكتاب والصحفيين ، الكويت ، ٢٢-٤-١٩٨١م.

٢٢)محمد محفوظ ، الإسلام والغرب وحوار المستقبل ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٨، الدار البيضاء ، ص ٨٤ .

٢٣)المرجع السابق ، ص ١٩ .

٢٤)محمد محفوظ ، الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ١٩٩٩ م ، ص ٢٦ .

٢٤)هادي نعمان الهيتي ، الاتصال الثقافي الدولي والعوامل الميسرة لسريانه من الغرب إلى العرب ، الندوة الفكرية التي نظمها المجمع العلمي العراقي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٥ م ، ص٢٧١ .

٢٦)جاكلين رودملف ، صورة الشرق الأوسط والعوامل المؤثرة في تشكلها ، دراسات شرقية ، السنة الأولى ، العدد ٢ ، يناير ١٩٩٨ م ، ص ٤١ .

٢٧)صباح ياسين ، كيف يمارس الإعلام الغربي التشويه العنصري ضد العرب ومستقبلهم ، الندوة الفكرية التي نظمها المجمع العلمي العراقي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٥ م ، ص٢٧٦ .

٢٨)خليل أحمد خليل و ومحمد علي الكبس ، مستقبل العلاقة بين المثقف والسلطة ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ٢٠٠١ م ، المقدمة .